السيرة والتخييل، مقاربات في أشكال الكتابة عن الذات.

أ. حميدي بلعباس
جامعة معسكر

تظل العلاقة بين السيرة و الرواية أكثر التباسا فكثيرا ما ننظر إلى الرواية على أنها في وجه من وجوهها جنس سير ذاتي ،وتطل علينا كتابة السيرة الذاتية غير منفصلة على عن الذات الكاتبة وهي بذلك تستمد امتداداتها من الينبوع الذاتي والشخصي لكاتبها فتأتي الكتابة مغرقة في الأنا .إن كاتب السيرة الذاتية يحاول تدوين حياته الشخصية والأدبية والسياسية و الفكرية فيكون بذلك مضطرا إلى العودة إلى الماضي البعيد .لقد استفاد كاتب السيرة الذاتية من انجازات الرواية الفنية استفادة كبيرة مما أحدث تداخلا بين الجنسين .

يترواح فن السيرة الذاتية بين الدّقة والرّقة على حد زعم ليتون ستراشيLithon Strachéً، فالدقة مستمدة حسب ليون إيدل من «كون كاتب السيرة يسعى إلى أن يبعث الحياة فيما تبقى من مادة جامدة تخلقت وراء عبور إنسان ما إلى هذه الحياة الدنيا ،فسعى إلى أن يسترد ما كان بمثابة الروح والجسد والمشاعر ،ويصوغها على صورة ذلك الإنسان الغابر.ومصدر الرقة أن عملية السيرة هي بطبيعتها عملية تتسم بالإنسانية والتهذيب والمدنية »(ايدل،ل.1973:09).إن محاولة خوض غمار تجربة فن السيرة الذاتية تنبني أساسا على قواعد النفس البشرية ومتغيراتها، غموضها ومتناقضاتها إلى درجة يسعى فيها الكاتب إلى مجاراة ومواكبة الأحداث بعواطف النفس المثارة وإكراهات الزمن والمكان .بيد أن فنية السيرة الذاتية لا تتأتى إلا عن انضباط وانتظام يتقفى آثار منطقي جمع بين دقة التفاصيل وميعان المشاعر والأحاسيس.

لقد استطاع أندريه موروا أن يصف بصدق ما يحدث فعلا أثناء كتابة السيرة وكأنه ينزع إلى الاعتقاد باستحالة بلوغ معالم واضحة في فن كتابة السيرة الذاتية إذ يقول : « كنا نبحث سوية مدة خمس ساعات عن ظل يطير أمامنا –هذا الظل هو الحقيقة بشأن إنسان ما .سألنا أنفسنا عما إذا كان بوسع كاتب السيرة أن يمسك بها، ويبدو أنه ليس بوسعه ،وكلما ظننا أننا سنضع يدنا على الكتف الشبحي للسراب، انقسم إلى نصفين وهربا في دربين مختلفين وباتجاهين

متعاكسين .هربت في أحد الاتجاهين أفعال الإنسان وحياته الخارجية التي تمثل عن حق الوثائق والأدلة...وهربت في الاتجاه الآخر حياته الداخلية التي اختفت حال ما ظننا أننا قد أمسكنا بها »(أندريه.م.دت.:131) .فهل تتأسس شخصية صاحب السيرة بعيدا عن أوراقه أو يومياته أو رسائله؟ ثمة في الواقع أفكار تظل مختبئة في ثنايا اللاوعي تتدفق باستمرار تحت الخفاء .

لقد اختص فيليب لوجون Philippe Lejeune في البحث في السيرة الذاتية حيث وضع تعريفا علميا للسيرة الذاتية بحيث عرفها بأنها «حكي استيعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة عامة »(الباردي،م.56:2005) ومما لا شك فيه أن الجزائر لم تكن بمعزل عن التحولات التي وفدت من الغرب فأصبغت آثار المشرق و المغرب بألوان مختلفة ،فالدارس للأدب الجزائري الحديث يلفي تأثرا واضحا للأدباء الجزائريين بهذا الفن و بالمنحى الذي سار فيه النقد العربي بخصوص علاقة الرواية بالسيرة الذاتية .

وفي مقاربته لرواية "يوميات مدرسة حرة " لزهور ونيسي يتساءل عمر بن قينة عن النوع الذي ينتمي إليه هذا الإبداع إذ يزعم أنه « الأول من نوعه عندنا »(بن قينة.ع.176:1986)غير أننا إذا استعرضنا بعض المتون النقدية فإننا نلفي أن رواية السيرة الذاتية أو المذكرات كجنس أدبي لم يكن غائبا عن التراث النثري الجزائري وإن أطل بملامح مغايرة ،فقد كتب المذكرات والسير الذاتية قبل الأديبة زهور ونيسي كل من :عبد الحميد بن باديس ، العنيسري ،محمود بوزوزو ، وحمزة بوكوشة وغيرهم(مرتاض،ع.36:1983) ، أما فيما يخص الجانب الفني فإن الناقد يعتبرها « رواية بمقياس النص ورواية بمقياس نمو الأحداث عبر الظرف الزماني والمكاني والنفسي »(بن قينة ،ع.176:1986)،فالإبداع يتخذ من الحياة الشخصية للمؤلفة مرتكزا أساسيا، فأضحت رواية "يوميات مدرسة حرة "من النصوص التي أرادت أن تنحت لغتها الخاصة لتبلور التجربة الفردية للأديبة.

وفي موضع آخر يتساءل عمر بن قينة من جديد عن روائية هذا الإبداع إذ نلفيه يتردد في اعتباره رواية حيث يقول « هل هي رواية حقا ؟ »(بن قينة ،ع177:1986).و نلمس من موقف الناقد أنه يفرق ما بين الرواية الفنية ورواية السيرة الذاتية.

لقد أشار "جان ستاغبنسكي" "Jean Starobiniski" على أن ينبغي تجنب الحديث عن أسلوب أو حتى عن شكل مرتبطين بالسيرة الذاتية ،إذ لا وجود في هذه الحالة لأسلوب أو لشكل ينبغي الالتزام بهما ، فمن الصعب إذن أن نجعل

حدودا فاصلة مابين السيرة والرواية والمذكرات واليوميات. فجورج ماي Georges May لم يلزم نفسه بتعريف محدد، بل نده يؤكد أنه لا يوجد بين السيرة الذاتية والمذكرات أو بين السيرة الذاتية والرواية خط فاصل بيِّن وأن المسألة مسألة نسب ودرجات(جورج ،م. 47:1979).

وفي محاولة لإلتقاط النصوص التي تنبض بمشاهد من السيرة الذاتية يستهل أحمد منور(منور،أ.185:1991)في دراسته لرواية السيرة الذاتية في الأدب الجزائري المعاصر وذلك بتقديم أهم نماذج هذا الجنس الأدبي،الكلاسيكية منهاعلى غرار روايتي "جين أير" و"اميلي برونتي" ويحصي في المقابل نماذج أخرى في الأدب العربي على غرار روايات طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم، في أشهر إبداعاتهم الروائية كـ "عودة الروح" و"عصفور من الشرق " و"صارة" و " زينب" و "قنديل أم هاشم".إذ يلحظ أحمد منور أن مثل هذه الروايات تخرج في الغالب عن أطر الذاتية الفطرية وتنجذب طوعا تارة و قسرا تارة أخرى نحو تيار الموضوعية ،وهي تنصرف أساسا من إطارها الخاص إلى أطر عامة وعلى هذا النحو تخرج عن إطارها السير الذاتي متحولة إلى متاهات التخييلية الروائية على الرغم من أنها تسعى دائما على الإحتفاظ بجزئيات الجانب الذاتي .وهو ما يشكل في الواقع منحا عاما على أن يشكل خصوصية في الكتابة الروائية الجزائرية للسيرة الذاتية طالما أن فلوبير نفسه -كما يورد أحمد منور – يعترف في رواية "مدام بوفاري "لسائليه قائلا :أنا مدام بوفاري .

وفي هذا السياق تبدت رواية "إبن الفقير "لمولود فرعون رواية متفردة شذت عن السائد في كتابات السير الذاتية،ذلك أن مولود فرعون –حسب أحمد منور-قد حاول أن يسلك مسلك مونتيني وروسو ودودي وديكنز،كونها تؤلف -في نظره-نماذج تنأى بفنيتها عن الدراسة السيكولوجية أو حتى عن البناء الشعري وتبتعد في الوقت نفسه عن رواية المغامرات انطلاقا من عمق خيالها .

يحاول أحمد منور تقفي آثار السيرة الذاتية في رواية "إبن الفقير "لمولود فرعون ، إذ نلفيه يعتبرها رواية قد كسرت قواعد التكتم على غرار روايات جزائرية أخرى تنحو نفس المنحى مع قليل من التحوير والإنتقائية ويقول في هذا الشأن : « فنجمة ما هي في الواقع إلا السيرة الذاتية لكاتب ياسين في فترة معينة من حياته مع شيء من التحوير والتغييرو إعادة التركيب، و" طيور في الظهيرة" و"البزاة" لمرزاق بقطاش ليست إلا السيرة الذاتية للكاتب ...كذلك نجد من ملامح الكاتب في رواية ""التطليق" أو الإنكار لرشيد بوجدرة. و"رائحة الكلب"لخلاص جيلالي و"باب الريح" لعلاوة وهبي و"الانهيار" لإسماعيل غاموقات و"الشمس تشرق على الجميع" لنفس الكاتب و"أطفال العالم الجديد" لآسيا جبار ونجد الطاهر وطار باسمه الصريح وبشخصه الحقيقي

في رواية "العشق والموت »(منور،أ.1991:185) . ويعتبر أحمد منور أن هؤلاء الكتاب –باستثناء محمد ديب- لم يتخذوا من حياتهم المحور الأساسي للرواية لكنهم « يتخذونها متكأ إن صح التعبير أو معبرا نحو الانطلاق من الذاتي إلى الموضوعي ,أو من الخاص إلى العام ومن هنا تخرج الروايات عن إطارها الذاتي السيري إلى إطار الرواية التخييلية بمعناها العام(منور،أ.1991:186). لقد استطاع مولود فرعون –في نظر الناقد - أن يرسم بسيرته الذاتية « صورة متكاملة للقرية وسكانها لا في صورة الكاتب نفسه،لاسيما أن حياة الكاتب في حد ذاتها...هي حياة عادية جدا، فهي في غاية البساطة وتشبه إلى حد كبير حياة معظم أطفال الريف الجزائري في الفترة الإستعمارية كلها من حيث لفقر والحرمان والحاجة لأبسط مستلزمات الحياة » (منور،أ.1991:188) .لقد استطاع مولود فرعون أن يعكس بدقة متناهية التفاصيل حيثيات المكان الذي نشأفيه لدرجة أن أحمد منور كان يرى في هذا العرض بناء فعليا لديكور مسرح أحداث ستروى لاحقا ،وقد كان ذلك مهيمنا بصورة فعلية على الرواية لدرجة أن الروائي حاول أن يلغي من خلالها أمكنة أخرى قد أثرت في حياته بشكل كبير،وذلك باعتماد تضييق المكان وحصره وهو ما انعكس أساسا بسلبية على نطاق وحدود المدينة.

إن الحشد اللامتناهي للشخصيات و بعض التفاصيل التافهة لعادات و تقاليد القرية عكس بصدق بروز المنحى الاجتماعي للكاتب فالشخصيات « من الكثرة بحيث يتعذر على قارئ الرواية إحصاؤهم أو تذكرهم جميعا ،لأن الكاتب كان حريصا على سرد شبكة العلاقات التي تربط سكان القرية ببعضهم البعض من حيث القرابة أو المصاهرة أو الجيرة الخ...فكان ذلك يجره إلى الاستطراد والاستعراض للكثير من الوجوه دون عناية كافية بإبراز كل أبعاد الشخصية ومكوناتها النفسية»(منور،أ.1991:186)،وذلك ما لم يمنعه –حسب أحمد منور-من تقديم تصور نوعي وإبداعي حيث يمكن للقارئ أن ينغمس في لذة المبادلة العاطفية لشخصيات تبدو للقارئ كما لو كانت معروفة سلفا بكل حيثياتها وأسرارها على الرغم من أن عواطف الكاتب وتعاطفاته أو تأثراته شكلية لا تتعدى حدود التعليقات القصيرة .

لقد خلص أحمد منور في نهاية مقاربته لرواية "ابن الفقير" لمولود فرعون إلى إجراء مقارنة بين رواية السيرة الذاتية ورواية التخييلية، وانتهى إلى أن مولود فرعون قد كان واعيا كل الوعي بما تنطوي عليه فنيات كتابة رواية السيرة الذاتية من عيوب، على الرغم من إصراره على محاكاة واقعه بالشكل الذي جاء عليه ضمن رؤية إبلا غية في المقام الأول، حيث بدت نوازع

البراغماتية والعملية مهيمنة على البعد الجمالي وذلك لا يعني في كل الأحوال انعدام وجود بعض الصور الفنية والمشاعر الرقيقة والعواطف الجياشة .

لقد تعرضت الباحثة الجزائرية خديجة زعتر(زعتر،خ.2003:40) إلى دراسة السيرة الذاتية في بحثها الموسوم بـ"السيرة الذاتية في الأدب العربي، "جبرا إبراهيم جبرا نموذجا" أن تلج باب السيرة الذاتية من أوسع أبوابها، إذ تبدي من الباب الأول نزوعا واضحا نحو المباشرة في الطرح،في محاولة للبحث في التطور التاريخي ضمنيا ،كونها حاولت رصد حيثيات وأدبيات كتابة السيرة سواء في نصوص قديمة أو حديثة أو معاصرة ،وفي هذا الباب استطاعت أن تمهد بعرض نمطية تقريبية للكتابة العربية في فن السيرة الذاتية ،ثم أتبعت الباب بباب ثان ،ولجت من خلاله عتبات المقاربة بصورة مباشرة لنص جبرا إبراهيم جبرا"البئر الأولى"، وعلى نفس المنوال قدمت في الباب الثاني قراءة لنص ثاني ألا وهو "شارع الأميرات".وفي ما يبدو أن خديجة زعتر قد استطاعت أن تنتقل بين البابين من منهج يقوم أساسا على فنية البناء في السيرة و ذلك ببحث نظمه السردية ولغته و أساليبه ،ثم طفقت بأسلوب مغاير تنهج طريقة دراسة النص الثاني في الباب الثالث انطلاقا من تقسيم المتن إلى قسم أول و ثان،وهو في الحقيقة ما لم تبن من خلاله هذه الباحثة عن منهجية واضحة ومحددة في التحليل ،إذ يمكن للدارس أن يلاحظ عنايتها في الفصل الأول من الباب الثالث بتتبع الأطر المضمونية لرواية "شارع الأميرات" لتنتقل بعدها في الفصل الثاني و الثالث إلى متابعة حيثيات البناء الفني متطرقة أساسا إلى إشكالية التجربة الفنية والصراحة والتداخل بين المعطيات، وهي كلها في الواقع إشكاليات تبدو من صميم البحث في نقد رواية السيرة الذاتية.

نستنتج من خلال كل ما سبق أن الدراسات التاريخية في نقد الرواية ،قد تغلب عليها جانب التأريخ الذي جعل نقادنا يهيمون في متاهات النقاشات و التأويلات في إطار السبق الروائي وظهور الرواية الفنية الناضجة ،ووقفوا عند تخوم النقد التاريخي ولم يدخلوا عالمه الرحب ،وبخاصة في باب حديثهم عن رواية السيرة الذاتية التي رأيناها عند أحمد منور الذي أعطاها الطابع الإجمالي العام في حديثه عنها في الأدب الجزائري ،ولم يفصل الحديث عنها ،إلا في النموذج عن "ابن الفقير" ،غير أننا نرى بعض الكتاب الجزائريين من تعرض إلى السيرة الذاتية،مثل خديجة زعتر التي دخلت عالم السيرة الذاتية ،من بابها الواسع في دراستها التي سبق وأن أشرنا إليها، وهي تعد –على وجه العموم-أول دراسة أكاديمية عرفتها الدراسات الجامعية في الجزائر .

الإحالات والهوامش:

1- البارودي محمد ،عندما تتكلم الذات ،السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث،منشورات اتحاد الكتاب العرب ،دمشق ،2005 .ص56.

2- إدل ليون ، فن السيرة الأدبية ،تر.صدقي حطاب ، القاهرة ، مطابع سجل العرب ،1973 ،ص 09 .

3- أندريه موروا، أوجه السيرة ، تر.ناجي الحديث، العراق ،دار الشؤون الثقافية العامة ،د.ت ،ص 131.

4- بن قينة عمر ،دراسات في القصة الجزائرية القصيرة و الطويلة ،المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، ط1. 1986، ص176.

5- المصدر نفسه، ص176.

6- نفسه ، ص177.

7-نفسه ،ص 177 .

8 - م ن ،ص ن .

9- ينظر عبد المالك مرتاض ،فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931-1954) ،(د.م.ج)الجزائر ،1983 ،ص36.

10-Voir Georges May,l'Autobiographie,PUF.Paris.1979.–

11- منور أحمد، رواية السيرة الذاتية في الأدب الجزائري الحديث ،ابن الفقير نموذجا ، مجلة المساءلة ،اتحاد الكتاب الجزائريين ع 1،1991 صص170. 189.

12- م ن ، ص 185.

13- م ن ،ص 186 .

14- م ن ،ص 188

15- زعتر خديجة ،.رواية السيرة الذاتية في الأدب العربي ،جبرا إبراهيم جبرا نموذجا. رسالة مقدمة غير منشورة لنيل شهادة دكتوراه في الأدب العربي ،السنة الدراسية 2004/2003 ،جامعة السانية، وهران ،الجزائر.

قائمة المصادر ولمراجع:

1-البارودي محمد ،عندما تتكلم الذات ، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ،منشورات اتحاد الكتاب العرب،دمشق ،2005 .

2- أدل ليون ،فن السيرة الأدبية ،تر:صدقي حطاب،القاهرة ،مطابع سجل الغرب،1973 .

3-أندريه موروا،أوجه السيرة ،تر:ناجي الحديث،العراق،دارا لشؤون الثقافية العامة ،د.ت .

4- بن قينة غمر ،دراسات في القصة الجزائرية القصيرة والطويلة ،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،ط1986،1.

5-عبد المالك مرتاض،فنون النثر الأدبي في الجزائر1931-1954 ،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،1983.

5-منور أحمد ،رواية السيرة الذاتية في الأدب الجزائري الحديث،ابن الفقير نموذجا،مجلة المساءلة ،اتحاد الكتاب الجزائريين،ع1 ،1991.

6-زعتر خديجة ،رواية السيرة الذاتية في الأدب العربي ،جبرا إبراهيم جبرا نموذجا ،رسالة مقدمة غير منشورة لنيل شهادة دكتوراه في الأدب العربي ،جامعة السانية ،وهران،الجزائر .

7-.George may,l autobiographie,PUF ;Paris,1979.